

كيف ينشأ التشبه الروحي؟ وهل يصبح المُحب شبيهاً بمحبوبه؟

علام يدل التشبه الروحي؟ وكيف يتجلى؟

يُعدّ "التشبه الروحي" وأسباب ظهوره من المواضيع اللافتة في مجالات المعرفة، حيث نلاحظ أنه كلما ازداد تعلقنا العاطفي والعقلي بشخص نحبه، بدأنا شيئاً فشيئاً نكتسب من ملامحه وسلوكياته، فنتشابه معه في طريقة الكلام، والتصرفات، والطباع، بل وقد تمتد المشابهة إلى الأذواق والاهتمامات. لكن، ما سرّ هذا التشابه العجيب؟ كيف يمكن لشخصين لم يعرفا بعضهما من قبل، بل وربما كانا مختلفين تماماً في ميولهم وأفكارهم، أن يبدأ بمرور الوقت في التشبه على مستويات متعددة؟ هل هذا مجرد تأثير عابر، أم أن هناك آلية نفسية عميقة تقف وراءه؟ وهل يمكننا الاستفادة من هذه الظاهرة في حياتنا؟

في هذا المقال، نستكشف الأسباب التي تؤدي إلى نشوء التشبه الروحي بين مختلف الأشخاص، ونكشف عن كيفية حدوثه، وسنشرح آلية الاستفادة منها لصالحنا في بناء علاقات أقوى وأكثر انسجاماً.

العلاقة بين التشبه الروحي والارتباط العاطفي

إن علاقة وثيقة، والحب والتقارب والتفاعل المتبادل هي أسس التشابه. إننا نستخدم كلمتي "تشابه" و"تشبه" عندما نلمس أو نلاحظ أثراً لسلوك مشترك، أو نظرة متوافقة، أو أفكار متقاربة بين شخصين أو أكثر. هذا التجانس الذي نسميه نشوء "التشبه الروحي"، لا يظهر صدفة، بل هو ثمرة روابط وثيقة وقرب وجداني عميق بين الطرفين. وبعبارة أخرى، فإن كل تشابه حقيقي بين شخصين هو نتاج ونتيجة لتواصل دافئ عميق تحكمه المحبة والمودة.

فعلى سبيل المثال، عندما يُبدي طالب إعجاباً خاصاً بأحد معلميه؛ فإنه يبدأ دون وعي منه في محاكاة طريقته في التعامل وسلوكه، وبذلك يخلق نوعاً من التشابه أو التماثل بينه وبين معلمه المحبوب. وهذا التماثل بدوره قد يستثير اهتمام المعلم وعاطفته تجاه الطالب، مما يؤدي إلى استمرار هذه الدائرة وتعمقها، وبالتالي يزداد التشابه بين الطالب والمعلم يوماً بعد يوم. وفي سياق آخر، نلاحظ مراراً وتكراراً أنه عندما يلحظ الوالدان سلوكاً معيناً لدى ولدهما، فإنهما يسعيان للبحث عن جذور هذا السلوك وعوامله في علاقاته وصدقاته؛ لأن كل سلوك جديد ينبئ عن وجود رابطة جديدة. وبعبارة أخرى، فإن التشبه الروحي بين الأفراد ما هو إلا علامة على وجود صلة عاطفية وتواصل مستمر بينهم.

هذا التأثير يظهر جلياً أيضاً بين الأزواج. فكلما زاد التفاهم والارتباط الوجداني بين الزوجين، نشأت بينهما أوجه تشابه في الطباع، وفي أسلوب التفكير، والأخلاق، و ردود الأفعال، وكأنّ الأرواح بدأت تذوب في بعضها البعض، لتُخلق بينهما وحدة داخلية تتجاوز مجرد التعايش. بيد أن هذا التشابه يمكن أن يسير في اتجاه إيجابي يُفضي إلى نمو شخصية الفرد وارتقائه، أو في اتجاه سلبي يؤدي إلى تراجع الروحي وانحداره. ويعتمد هذا الأمر بشكل كبير على ما يوليه المرء اهتمامه، وعلى طبيعة الصلة التي يقيمها مع الآخر.

وباختصار، يمكننا القول إن التشبه الروحي هو انعكاس صادق لوجود علاقة عاطفية. فنحن لا نشبه شيئاً أو شخصاً إلا إذا ربطتنا به علاقة حقيقية وكان في داخلنا نحوه قدر من الإعجاب أو الحب.

آلية استخدام قاعدة التشبه الروحي

كما أشرنا سابقاً، فإن التشبه الروحي هو ثمرة التقاء المشاعر وقيام علاقة عاطفية بين طرفين. وكلما تعمق التواصل بين الأشخاص، زادت الألفة والمودة، ومعها يتعزز هذا التشابه. من هنا، يمكننا أن نعكس هذه القاعدة ونستفيد منها عملياً: فإذا كان التواصل يولد التشبه، فإن خلق التشابه بدوره يمكن أن يعزز الألفة ويقوي روابط المحبة.

الأمر يشبه تماماً الطريقة التي نتعلم بها مهنة أو مهارة أو علماً جديداً. عندما نبتغي اكتساب مهارة جديدة، فإن أول ما نسعى إليه هو اختيار معلمٍ أو مدربٍ لا يتمتع بقدرته فائقة في مجال تخصصه فحسب، بل تربطنا به أيضاً علاقة ود ومحبة على المستوى الروحي. ثم نشرع في محاكاة هذا المعلم في المجال المنشود؛ ففي تعلم فن الخط، نتبع النموذج الذي يضعه الخطاط، وفي فنون القتال، نقلد حركات المدرب بدقة. وحتى في تلقي العلوم، فإننا نرسخ ما يقوله المعلم ويشرحه في ذاكرتنا عن طريق الممران والتكرار، حتى نحفظه عن ظهر قلب. إن نتيجة هذه الممارسات هي نشوء ضربٍ من التشابه بيننا وبين الأستاذ في الأمر الذي قمنا بتقليده فيه؛ فإذا ما استمرت وتيرة اكتساب هذا التشبه، قد نصل إلى درجة الإتقان، بل وقد نتفوق على أستاذنا ذاته. بيد أن بداية هذه الآلية تنطلق من محاكاة حركات الأستاذ، وينتج عن هذا التشابه المتزايد شيئاً فشيئاً ميلاً وتقارباً أكبر بيننا وبينه.

التشبه الروحي والقرب من أهل البيت عليهم السلام

إننا جميعاً، نستخدم في حياتنا اليومية قاعدة التشبه الروحي، وعلى دراية بآلية عملها وكيفيةها بشكل فطري وطبيعي. وقد تحدثنا بتفصيل في دروس سابقة عن أن هدف الله من خلق الإنسان هو العبودية، وأن أسمى هدف للإنسان هو الوصول إلى كيان متوازن ومتجانس ومتوافق مع طبيعة الآخرة.

ولأجل بلوغ هذا المقام العالي، وضع الله لنا آلية التشبه الروحي، وزودنا بأعظم الأساتذة والقديوات، الذين تجسدت فيهم جميع المعاني الإلهية الكاملة. وفي طريقنا نحو التشبه بالبنية الروحية للأبدية، تلعب ارتباطاتنا، وسلوكياتنا، واختياراتنا، وأفكارنا دوراً محورياً. لذلك لا بد أن يكون المعلم والقُدوة في هذا المسار متكاملين في هذه الجوانب الأربعة، بحيث يمكننا الاقتداء به بثقة تامة، لكي نتمكن من خلال الاقتداء به واتباعه من الوصول إلى التشبه الروحي مع طبيعة الآخرة، ومن ثم إلى التشبه بصفات الله سبحانه وتعالى.

أما المقصود بالتشبه بصفات الله تعالى فهو تفعيل واكتساب أسمائه وصفاته الكامنة فينا جميعاً كبشر. ولأن التشبه هو ثمرة العلاقة، فلا بد لنا أن ننسج علاقة حقيقية مع الله كي نصل إلى هذه الغاية. غير أن وجودنا المادي، بما فيه من محدودية، لا يقوى على الاتصال المباشر بالمطلق اللانهائي، ولهذا فنحن بحاجة إلى مرآة صافية، تعكس صفات الله بأكمل صورة، وتُظهرها لنا بطريقة ملموسة نقدر على فهمها. وهذه التجليات والنماذج الكاملة، أو ما يُعرف بأساتذة الإنسانية، هي مظاهر وظهورات كاملة لله تعالى، والتشبه الروحي بهم يُعدّ بمثابة التشبه بصفات الله. فمن خلال الاقتداء بأسلوب الحياة الإنساني والصفات الإلهية لأهل البيت (عليهم السلام)، باعتبارهم التجليات العُليا والأكثر شبيهاً بالمخلوقات لصفات الله، نستطيع أن نسير في طريق التشبه بصفاته عز وجل وتحقيق الغاية التي خُلِقنا من أجلها. على سبيل المثال، إن أردنا أن نكتسب اسم "الغفور"، ونكون شبيهين بالله في هذه الصفة، علينا أن نسلك مسلك الله وأهل بيته الكرام (عليهم السلام) في التغاضي عن عيوب الآخرين ونقاط ضعفهم، وأن نتعامل مع من أساء إلينا أو ظلمنا بصفح وعفو، وأن ننزه قلوبنا عن الحقد والضغينة تجاههم. عندئذٍ نكون قد اكتسبنا اسم الله "الغفور" وازددنا شبيهاً وقرباً منه سبحانه. وهذا التشابه الروحي هو نتاج الصلة بالله تعالى، وبأهل البيت الأطهار (عليهم السلام)، وبالأولياء الصالحين الذين سلكوا هذا الدرب بأنفسهم وبلغوا مراتب القرب والتشبه.

ذكرنا في هذا الدرس أن التشبه الروحي هو علامة على وجود علاقة وودٍّ وميل داخلي. فعندما نُعجب بشيء ما ونحبه، نسعى إلى التواصل معه، وثمره هذا الإعجاب والتواصل هي حالة من التشابه تنشأ بمرور الوقت. ويتجلى هذا الأمر بوضوح في الصداقات العميقة؛ فغالباً ما نلاحظ أن الأشخاص الذين يكتون لبعضهم البعض مودة خاصة ويقومون بعلاقات وثيقة، يكتسبون مع مرور الأيام سمات مشتركة في الأخلاق والسلوك. إن الإمام بقواعد كهذه، كقاعدة التشبه الروحي، يساعدنا على اجتياز مسيرة الحياة بسرعة وسهولة أكبر.